I. هكذا تحدث هكسلى

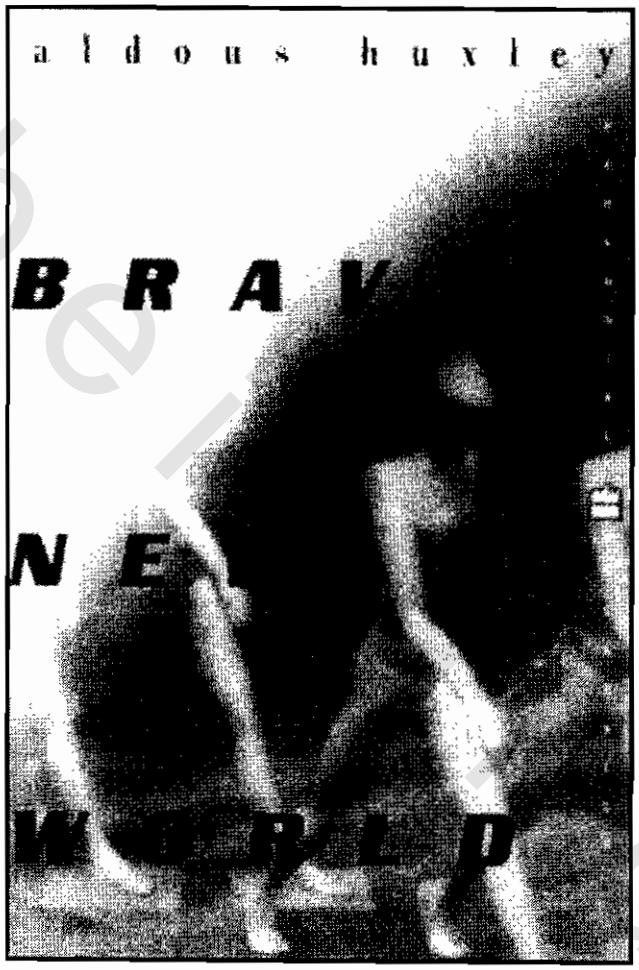

عالم «فورد» ... يوتوبيا بلا روح

منذ سبعين عاماً (١٩٣٢) ، ظهرت الطبعة الأولى من رائعة الدوس هكسلى «عالم جديد شجاع» ، لتقدم صورة كاريكايترية مخيفة عن عالم تم التحكم فى مصائر أفراده بالعلم والتكنولوجيا والإدارة الفوقية الخفية الحازمة . إستشرفت الرواية صورة هذا العالم ، متوقعة حددتها بعد ستة قرون من عصر فورد (لاحظ هذا التشابه بين لفظى فورد FORD ولورد LORD ، أو الرب . ففى عالم الرواية يقول أبطالها «أوه فورد» ، بدلاً من «أوه لورد» !!) . هذا العالم شعاره «الجماعة ، التماثل ، الإستقرار» . ولكن كيف تحقق الانضباط الكامل وموورست الهندسة الإجتماعية فى عالم فورد ، المغرق فى الحسية والمادية ، والخالى من الروح والحرية ؟ إن البداية تكون مع الأجنة فى حضّاناتها ، فالزواج والحب والإنجاب من الأمور الهمجية البدائية ، التى لفظها عالم فورد . هذه الأجنة تتعرض لمؤثرات وتقنيات مختلفة تؤدى إلى إنتاج أعداد كبيرة من الأطفال المتماثلين فيما بينهم ، والمختلفين عن الأطفال الذين يتم إنتاجهم فى ظل مؤثرات أخرى . تتضمن عمليات التكييف مقاومة بعض الظروف البيئية ؛ كتحمل نسب عالية من الرصاص ، والحقن بمضادات الأمراض ، وتحمل حرارة الجو ويضاف إلى بعضهم عنصر الذكاء .. إلخ . وتستخدم طريقة «بوكانوفسكى» لإكثار الأجنة المتماثلة ، وهذه الطريقة لا تسمح «للأسف» بإنتاج أكثر من ستة وتسعين جنينا من البويضة المخصبة الواحدة ، بمتوسط معقول يقدر باثنين وسبعين فقط . هذا ما ذكره مدير «مركز لندن الرئيسى لتفريخ والتكيف» خلال جولة لتلاميذ دولة فورد العالمية ، مؤكداً أن هذا الأسلوب المتطور يلقى الرضا والقبول ، لأن يكيف الأجيال القادمة للعمل ، بلاد من الإنشغال بالأفكار العامة ، قليلة النفع وعظيمة الضرر !!!

هذه الأجنة ، الناتجة من بويضات تم فحص صلاحيتها ، تنمى فى أمعاء الخنازير كبديل للأرحام ، وتعبأ فى زجاجات لإنتاج فصائل يتماثل أفراد كل منها . وهنالك فصائل أرقى (ألفا وبيتا) ، وأخرى أدنى (جاما ودلتا وأبسيلون) ، تتكيف كل منها لممارسة نوعيات معينة من الأعمال برضا و«سعادة» . وهكذا تم التخلص من الطريقة الهجمية القديمة للتكاثر ، التى يثير ذكرها خجل أبناء دولة العالم الجديد الشجاع . ولا تنتهى القصة عند هذا الحد . فبعد إنتاج الأطفال (وليس إنجابهم ، فهذه كلمة بربرية) يتعرضون لمزيد من التكيف التربوى . وتذكر الرواية نموذجا طريفا لذلك . فقد إقتضى «الصالح العام» تكيف الفصائل الأدنى لكراهية الكتب والطبيعة ، حتى يتم التركيز على العمل فى المصانع والحد من استخدام وسائل النقل فى النزهات الخلوية خلال العطلات . يتم إحضار الأطفال ، وتركهم يزحفون بلهفة وحب وإستطلاع نحو الكتب والزهور الملونة ، ثم تستخدم الأصوات المزعجة والصدمات الكهربائية لجعلهم ينقلبون على أعقابهم . ويمارس هذا الأسلوب التربوى

المتطور حتى يتم الربط بين الإنجذاب نحو أوعية الفكر وجمال الطبيعة وبين العواقب الوخيمة لهذا الإنجذاب . وتستمر الممارسات التربوية القوية لتشمل وسائل التسلية الحسية وغير ذلك ، مما يؤكد الإنضواء التام تحت «هندسة مجتمعية» شاملة ، لامكان فيها لمعوقات «التقدم» : الفردية – الحب – الجمال – الحرية .

وفى ثنايا هذه «الرواية المستقبلية» نجد خطاً دراميا لافتاً يتصور اللقاء بين عالم فورد وعالمنا الهمجى فتحليل هذا اللقاء قد يكون مفيداً فى ترشيد العلاقة بين عصرنا الآفل وعصر الجينوم الآتى ، رغم قلة التشابه الظاهرى . أبطال هذا الخط الدرامى هم برنارد ، المواطن الناجح فى عالم فورد ، وصديقته لينينا والهمجى چون ، الذى أتيا به إلى العالم المتحضر من جنوب غرب أمريكا ، حيث للأمريكيين الأصليين بالإقتران والإنجاب بالطريقة المتخلفة التى مازلنا نمارسها ، فلا يجب أن ننسي أن الرواية تجرى بعد ستة قرون من العصر الفوردى . إتبع برنارد ولينينا النظام السائد فى دولتهم العالمية . مارسا العمل طبقا لتكيفهم ، ومارسا الجنسى المتعدد المتحضر بلا تمييز ، حتى أن صديقة لبطلتنا نبهتنا إلى المغزى السلبى لتكرر لقاءاتها مع برنارد . كما تناولا عقار «السوما» ، الذى يمدهم به النظام لتوفير «الأمن المزاجى» لمواطنيه . لكن برنارد إنسان ، وللهندسة الإجتماعية حدودها ، كما قد يكـون هنالك خطأ ما قد حدث فى تكيفه ، إنه لا يشعر بالراحة فى كثير من الأحيان ، ويعانى من إفتقار «شيء ما» فى حياته وعلاقاته .

وفى إحدى رحلاته مع لينينا إلتقيا بچون ، الذى إنجذب نحو لينينا وأحبها ، رغم إفتقادها للقدرة على مبادلة العاطفة والحب . وعرف الآخرون حكاية الهمجى ، الذى أدى شعوره بالفشل إلى تعذيب نفسه والإنتحار فى مشهد دامى ، يشير إلى إنتصار عالم فورد .

زيارة جديدة إلى عالم فورد

فى عام ١٩٥٨ ، بعد ستة وعشرين عاما من ظهور الرواية ، كتب هكسى دراسة تحليلية تحت عنوان «العودة إلى العالم الجديد الشجاع» . كما تعددت الإصدارات الخاصة بالدوائر النقاشية التى جرت حول الرواية . وكان الهاجس الرئيسى فى زيارة هكسلى للعالم الذى إبتدعه ، وللنقاش الذى دار حوله ، يدور حول سؤال محورى هام : إلى أى مدى يقترب عالمنا من هذا العالم الجديد «الشجاع» ؟ وأدعى هنا أن الإنتـهاء من خـريطة الچينوم البشرى ، والحوار حول آفاق وأخلاقيات تطبيقاته ، يجعلان هذا السؤال أشد منطقية وإلحاحاً . ولنبدأ بزيارة هكسلى لعالمه .

لقد ناقش هكسلى قضايا الإنفجار السكانى والتنظيم الفائق والبروباجندا والدعاية وغسيل المخ فى المجتمعات الديمقراطية ، وتطرق إلى العقاقير وغيرها من وسائل التأثير فى الوعى (قبل ظهور البروزاك وغيره) ، واستعرض موضوع «التعليم الحرية» ،

وإنتهى إلى التساؤل : ما الذى يمكن عمله ؟ بعد أن أبدى فى ثنايا الكتاب ملاحظة عـن أشكال الإقتراب السريع من عالم فورد ، ومنع أمله فى التعليم الذى يرسخ الحرية ، وفى حل مشكلات الزيادة السكانية بتنظيم النسل مع ظهور أمراض منع الحمل التى لم تكن موجودة عند ظهور الكتاب الأول وتوظيف التقدم العلمى للمحافظة على الموارد وتوفير الغذاء ، وفى كبح جماح التنظيم الفائق بصور تقارب ما نناقشه اليوم عن المجتمع المدنى والجمعيات غير الحكومية . إنه يدعو إلى تفكيك الترابط بين آليات الهندسة المجتمعية الفوقية ، وتحرر الأفراد والجماعات من ربقتها . ولا يفقد الأمل فى ذلك ، بل يذكر أن بعض المحاولات الناجحة جرت هنا وهناك ، للتخلص من «خدر» التنظيم والتحكم الشامل «المريح» لمصائر البشر . إن بعض من ناقشوا الرواية والزيارة لاحظوا خطورة هذا التخدير المغيب للوعى . وقارنوا بين مجتمع العنف والعقاب فى رواية جورج أورويل «١٩٨٤» وهذه الرواية . فهنا تتم تهيئة الأفراد ، ويجرى تكييفهم لقبول وظيفتهم الإجتماعية ، والتمتع بمزايا النظام وحوافزه جنس بلا حدود وعقاقير عند اللزوم وتسلية مبرمجة ، فى مقابل أمور ترفية بسيطة : الحرية والفردية والجمال ، فمن يغامر بفقدان المزايا من أجل هذه الأمور التافهة ؟ والمشكلة هنا ، أن الذي يتطلع إلى المغامرة هو الإنسان ، المطلوب إخضاعه لهذا النظام .

هكسلي والعالم على مشارف عصر الچينوم

ذكرت فيما سبق دوائر النقاش التى تمت حول رواية هكسلى وإصداراتها العديدة . وسأنتقى هنا بعض الأسئلة التى وضعتها «نوادى الكتاب» كدليل للمناقشة ، حيث يجعلنا التعقيب عليها نقترب من التعرض للعالم الذى تشكله «ثورة البيولوچيا» ، ويرسـم ملامحه «عصـر الچينوم» . إليكم هذه العينة المنتقاة من الأسئلة :

* مع ثبوت الدقة الكاملة للقليل من توقعات هكسلى ، يلاحظ أن العديد مع ملامح يوتوبيا – «عالم جديد شجاع» تبدو مشابهة لعالمنا ، بشكل يدعو إلى عدم الإرتياح . تحدث عن الكتاب كرؤية تنبؤية للمستقبل . أى الجوانب تبدو أكثر مدعاة للقلق ؟ وأيها يبدو وبعيداً عن التصور ؟

* قرب نهاية الكتاب ، يلخص مسئول الضبط والتحكم مصطفى موند مزايا العيش فى يوتوبيا «العالم الجديد الشجاع» قائلاً : «إن العالم مستقرا الآن . الناس سعداء ؛ يحصلون على ما يريدون ، ولا يطلبوا أبداً مالا يستطيعون الحصول عليه» . إن الأمر يبدو وكأنه الكمال بعينه ، ومع ذلك فالعالم الذى يصفه موند يبدو مرعباً بشكل عمدى عميق ، لماذا ؟ ما الذى يبدو سيئا بالضبط بالنسبة لهذا المجتمع المستقبلى ؟ وهل هنالك فيه ما يمكن أن يكون طيبا ، أى شىء يمكن أن نتعلمه منه وأن نحاول تكييفه لإستخداماتنا ؟

* مع ما فى «العالم الجديد الشجاع» من إهدار للإنسانية وقمع للحرية ، إلا أن البديل الذى يمثله الهمجى أسوأ فى الكثير من النواحى – قذر – عنيف – غير صحى – قاس – غير مريح . ما الذى يريد هكسلى أن يشير إليه بالنسبة للطبيعة البشرية ولطبيعة الجماعات البشرية ؟ هل تعد رؤية سلبية تماما – أم أن الكتاب يظهر بريقا من الأمل ، حالة بديلة توائم بين الحرية والجماعة ؟

* من أكثر الأمور إثارة للإنتباه – والكوميدية – فى يوتوبيا هكسلى قلبه للمعايير والإفتراضات الخاصة بالجنس : فالزواج المعتمد على رجل واحد وإمراة واحدة سيئ ، والعاطفة إنحراف ، والجنس العابر عديم المعنى هو المقبول من المجتمع . ماذا يقصد هكسلى بذلك ؟ هل هناك تعبير مقبول لديه بالنسبة للجنس عند البشر؟ هل يعد الجنس لب المشكلة فى نظره بالنسبة للطبيعة البشرية ؟

* هل يمكن أن يحدث ما يشابه هذا العالم الجديد الشجاع ؟ وهل يمكن أن يكون قد حدث بشكل ما دون أن نتعرف عليه ؟

لقد تعرضت زيارة هكسلى الثانية لعالمه الجديد الشجاع إلى تحليلات مماثلة ، تطرقت مثلا إلى ظهور أقراص منع الحمل وعلاقتها بحل مشكلة الزيادة السكانية ، وإلى مادة د. د. ت. التى كانت تعد حدثا هاما وقت ظهور كتاباته ، وثبت خطرها الممتد بعد ذلك . كما ذكرت تطور العقاقير ذات التأثير الكبير على الجهاز العصبى والحالة النفسية مثل البروزاك ، وظهور الإنترنت وعلاقتها باتاحة المعلومات والتعليم وعلاقة ذلك كله بمصير التنظيم الفوقى للمجتمعات . ونوقش الكتابان فى ضوء الظروف السياسية التى صاحبت كل منهما ، كصعود وإنهيار النازية والماركسية (ولا تذكر المكارثية الأمريكية كثيراً) . وفى تعليقنا العام على التساؤلات السابقة سنحاول أن نقترب من الموضوع فى ضوء القضايا التى تثيرها ثورة البيولوجيا والتوصل إلى الخريطة الكاملة للچينوم البشرى ، التى تؤذن ببداية عصره و«عالمه الجديد الشجاع» !!!

إن عالم فورد فى دولة هكسلى «أنتج» الأطفال بتقنية تشابه فى بداياتها الإخصاب خارج الرحم ، أو ما يسمى عادة أطفال الأنابيب ، وإن كان النمو لا يكتمل فى أرحام النساء ، ولكن فى قطع من أمعاء الخنازير (لاحظ أن الخنزير هو المرشح لإستخدام أعضائه ، بعد التعديلات الملائمة بالهندسة الوراثية ، فى تعويض الأعضاء التالفة للإنسان . شهدت بدايات ٢٠٠٢ أخباراً عن خنازير أنتجت لهذا الغرض) . والإشارة إلى حقن عنصر الذكاء بالأجنة الصغيرة تشابه وعود مصممى الأطفال ، وتتمشى مع ما أعلن منذ فترة بسيطة عن إنتاج فأر أكثر ذكاءً بالهندسة الوراثية . وكذلك تزويد الأجنة بمضادات الأمراض يمكن أن يكون الرؤية القديمة

للطرح المعاصر للتطويع الوراثى للأجنة . وبالنسبة لطريقة بوكانوفسكى ، التى تؤدى إنتاج أعداد كبيرة من الأفراد المتماثلة ، فمقابلها الحالى الواضح هو الإستنساخ ، ونجاح إنتاج أعداد كبيرة فى الفيران بالذات . إن الرواية تقدم – فى حدود الخيال العلمى – الكثير من الإرهاصات الواضحة ، وإن كانت هنالك أمورو مستبعدة مثل شيوع النظرة الدونية للجنس ، وغم ما يقال عن الإستغناء عن بالإستنساخ إن «مات ريدلى» يعتقد أن تاريخ الإنسان يتلخص فى كلمتين : الجنس والسياسة . والرواية تؤكد ذلك ، فالسياة فصلت الجنس عن الخصوصية والإنجاب ، وجعلت ذلك ملحما أساسيا من ملامح عالم الرواية . ولذلك أدانت الهمجى ، الذى أنجب بالطريقة «الطبيعية» ، وطلب الحب والجنس بالأسلوب الذى يعرفه . لذلك تدين الرواية الهمجى ، وتجعله قذراً وعنيفا وقاسيا . إنه حكم عالم فورد على الطبيعة البشرية ، التى يدعو إلى تغييرها وهندستها وفقا لنظامه الصادر وحوافزها الجاهزة – عمل ملائم لأبناء كل فصيلة ، جنس حر وعقاقير متاحة ، راحة البال من التفكير والإحساس العبثى بالفرح والألم والحرية ... إلخ .

وإذا كان عالم الرواية بعد بالقضاء على كل أشكال المعاناة ، فإن مقولة مصطفى موند عن السعادة والحصول على ما يتمناه أبناء عالم فورد ، تذكرنى بما قاله بيل كلينتون عند الإعلان عن المسودة الأولى لخريطة الچينوم البشرى فى فبراير ٢٠٠١ . لقد قال إن كلمة سرطان لن توجد إلا فى أبواب الحظ فى الصحف . كما ذكر إبن تونى بلير ، الذى كان حديث الولادة حينئذ ، قد أكتسب عشرين عاماً على الأقل تضاف إلى عمره، بسبب التطبيقات المتوقعة لنتائج مشروع الچينوم. ولاشك أن القارئ المتابع للأخبار المتلاحقة عن إمكانيات علاج آلاف الأمراض الوراثية ، بل والتحكم فى السلوك وتطويعه ، والقضايا المتعلقة بالتأمين والتوظيف وغير ذلك ، يتولد عليه الإنطباع بأن مصطفى موند، الذى يؤكد حل كل المشاكل يعيش بيننا !!!

وإذا كان التعليق قد إستعرض بشكل عام أغلب التساؤلات ، فقد يكفى أن نذكر الشكل المعاصر للسياسة التى تشكل العالم الجديد إن الحكومات، مهما كانت قوتها، لا تشكل هذا العالم وحدها . فالشركات الكبرى تتدخل فى ذلك لصالحها . ولا يمكن ترشيد عصر الچينوم ، وتوظيف العلم الغزير المتولد عنه ، بحيث يكون «علما نافعاً» يقودنا إلى مستقبل أفضل ، إلا بالوعى المجتمعى والعالمى الحر ، وليس بالبرمجة الفوقية أو القمع الإقتصادى والاجتماعى قبل أصحاب المصالح الضيقة . إن العالم كله بمؤسساته ومنظماته يدعو للمشاركة الإيجابية ، المبنية على الفهم ، والمرشدة لتغيير آت لاريب فيه إن المعرفة / القوة التى يقذمها عصر الچينوم يمكن فعلاً أن تسهم فى عالم أفضل ، لكنها يمكن أيضا أن تؤدى إلى التفرقة بين فصائل متقدمة وفصائل مهمشة ، تتجاوز «العالم الجديد الشجاع» الذى قدمته الرواية .